

كَلِمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ

إِرضاءات آثار سلفنا و تطبيرهم العمالي

في ردّ الأمور إلى من تخصّص فيها

رقمه:

أبو عبد الرحمن محمد العكرمي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي اختصّ بعض عباده بما يشاء، و جمع في قلب محمد ﷺ علم العلماء، و فرّق ذلك في صحابته الأوفياء، فكان أبو بكر منهم أرحم الرحماء من خلقه بعد الأنبياء، و أشدهم في دين الله عمر النجباء، و أفضهم زيد بلا مرء، كما ألبس عثمان من حلال الحياء، رضي الله عنهم و عن التابعين النبلاء.

و بعد :

إنّ شأن الاختصاص، و إحالة العلم إلى أهله مما درج عليه من تقدمنا، و من ذلك ما جرى ما بين الزبرقان بن بدر الصحابي و الحطيئة الشاعر الهجاء.

و الزبرقان كما يقول ابن الأثير: كان سيّدًا في الجاهلية عظيم القدر في الإسلام. وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد بني تميم منهم قيس بن عاصم المنقري، و عمرو بن الأهثم، و عطارد بن حاجب، و غيرهم فأسلموا و أجازهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسن جوائزهم، و ذلك سنة تسع.

و سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن الأهثم عن الزبرقان بن بدر، فقال: مطاع في أذنه، شديد العارضة، مانع لما وراء ظهره!!

قال الزبرقان: والله لقد قال ما قال وهو يعلم أنّي أفضل مما قال!!

وكان يقال للزبرقان: قمر نجد، لجماله!! و كان يدخل مكة متعمّمًا لحسنه! و ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقات بني عوف؛ فأداها في الردة إلى أبي بكر، فأقره أبو بكر الصديق

لما رأى من ثباته على الإسلام وحمله الصدقة إليه حين ارتد الناس!! وكذلك عمر بن الخطاب!!..اه(رقم1728 ط دار الفكر)

و خبره مع الحطيئة ذكره ابن الجوزي في المنتظم , ابن كثير في البداية و النهاية , وذكرها سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان , و محمد بن سلام الجمحي في طبقاته , وابن عبد البر في الاستيعاب , و غيرهم , وأوردها بشيء من الطول الأصفهاني في الأغاني , أحب أن أختصرها ها هنا بصياغتي , فأقول :

قدم الزبرقان على عمر رضي الله عنهم , في سنة مجدبة بصدقات قومه , فلقى الحطيئة قاصداً العراق وعرفه الزبرقان , ولم يعرف الحطيئة الزبرقان , فسأله عن قصده , فقال إنه يقصد العراق لعله يجد بها كريماً يكفيه مؤنته و ولده , ويصفيه مديحه , فقال له الزبرقان أن قد أصبته , وسيوسعك تمرا ولبنا في أكرم جوار فقال الحطيئة : ذاك و أبيك العيش .

فأرشده لداره و كتب له كتابا إلى زوجته أم شذرة أن أكرمي ضيفنا , حتى نلحق به , فكان الذي في الكتاب , حتى بدت من زوجة الزبرقان جفوة . و كان بغيض بن شماس من بني أنف الناقة ينافس الزبرقان في السؤدد و الشرف , فأرسل للحطيئة أن الحق بنا إذ جفتك أم شذرة , فأبى الحطيئة , و أنبأهم أنه في النساء جفاء و أنه لا يأخذ الغائب بجريرة الحاضر .

و عمد بغيض إلى دس امرأة تقذف في أذن أم شذرة أن الزبرقان يريد مليكة بنت الحطيئة , وكانت من أجل النساء , فزادت جفوتها , ثم عمد قوم الزبرقان إلى نجعة - وهي الأرض المعشبة ذات الماء- و كانت السنة مجدبة , ولم يكن ما يكفيهم ليركبوا جميعا , فأشارت أم شذرة على الحطيئة أن اركب أنت وأهلك إلى النجعة , وأعد إلينا ظهورنا لنلحق , فأبى

الخطيئة إلا أن تكون هي أول من يركب, فركبت أم شذرة , وتناقلت في رد الظهر إليه ,
يومين أو ثلاثة , والخطيئة في العراء , فأرسلت بنو أنف الناقة إلى الخطيئة أن ائتنا فإن قومك
أضاعوك , فلما بلغت الشدة من الخطيئة مبلغها لحق بهم .

فضربوا له خيمة , و أكرموه و أكثروا له من التمر و اللبن, وقال قولته فيهم :

قوم هم الأنف و الأذنان غيرهم *** ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا.

وألحوا عليه في هجاء الزبرقان , فأبى إذ لا جريرة له عنده , حتى كان من الزبرقان أن أرسل
لدثار بن شيبان من بني النمر , ليهجو بغيض بن شماس إذ أخذ منه ضيفه الخطيئة , فكان مما
قال دثار :

ألم أك جار شماس بن لأي ... فأسلمني وقد نزل البلاء

ثم يقول:

وما أضحى لشماس بن لأي ... قديم في الفعال ولا رباء

سوى أن الخطيئة قال قولاً ... فهذا من مقاتله جزاء

فلم يكن عند ذلك من بدّ , إلا أن يهجو الخطيئة الزبرقان و يدفع عنم أكرمه , و آواه . فقال
قصديته المشهور التي منها :

والله ما معشر لاموا امرأ جنباً ... في آل لأي بن شماس بأكياس

ما كان ذنب بغيض لا أبالكم ... في بائس جاء يحدو آخر الناس

لقد مررتكم لو أن درتكم ... يوماً يجيء بها مسحي وإساسي

إلى أن يقول :

جار لقوم أطالوا هون منزله ... وغادروه مقيماً بين أرماس

ملوا قراه وهرته كلابهم ... وجرحوه بأنياب وأضراس

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

فساق الزبرقان الحطيئة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه , وشكاه له , وأنشده الأبيات

التي منها قول الحطيئة : دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فقال عمر ما أسمع هجاء ولكنها معاتبة . فقال : الزبرقان أو ما تبلغ مروعتي إلا أن أكل

وألبس . فقال عمر : **علي بحسان فجيء به فسأله** . فقال : لم يهجه ولكن سلح عليه .

قال **ويقال إنه سأل لبيدا** عن ذلك فقال ما يسرني أنه لحقني من هذا الشعر ما لحقه وأن لي

حمر النعم فأمر به عمر فجعل في نقير في بئر ثم ألقى عليه شيء .

هذا مجمل ما في القصة من احتكام الزبرقان و الحطيئة , غرضنا بعد هذه الجولة الأدبية , أن

نستنطق ما صنع عمر قبل حكمه بحبس الحطيئة , وأكان يبيث في الأمر من عنده , وهو العربيّ

القرشيّ , فصحيح قحّ لا يعرف اللحن في اللفظ ولا في المعنى ؟

لا , و لكنه لما أشكل عليه الأمر استرشد برجلين هما , حسان بن ثابت و لبيد بن ربيعة

العامري , الصحابيّان الشاعران المتمكنان , لينظرا في قول من يحترف حرفتهما , ويحسها رأبهما

و أهجاء هو أم عتاب؟ فبثا بما يعلمانه من خبرة و اختبار، و ما جرباه من تلاعب الشعراء في الأشعار، فكان العدل في عمر رضي الله عنه، وفق ما بثه المختصان لا غيرهما.

ومن ذلك أيضا، ما ذكره الذهبي رحمه الله في السير (166/12) حيث يقول: (قال علي بن محمود الهروي، قلت لأحمد بن حنبل: من أعرف الناس بأحاديث ابن شهاب؟

قال: أحمد بن صالح، ومحمد بن يحيى الذهلي.) اهـ

و من ذلك أيضًا ما ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق في ترجمة الشافعي: (أخبرني عبد الله بن أحمد بن حنبل، فيما كتب إلي، قال: قال أبي: قال لنا الشافعي: أنتم أعلم بالحديث والرجال مني، فإذا كان الحديث صحيحا فأعلموني كوفيا كان أو بصريا أو شاميا حتى أذهب إليه إذا كان صحيحا.) اهـ

فإن قال قائل ما: أين هذا في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، إذ أن مواقف الرجال يستأنس بها، ولا يستدل بها استقلالا؟ قلنا: القول قولك، وسؤالك حق لا مرية فيه، وجوابه في قول ربنا عز وجل:

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۗ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ (59) الفرقان.

قال الإمام القرطبي رحمه الله في تفسير معنى الخبر: (قال الزجاج: المعنى فاسأل عنه. وقد حكى هذا جماعة من أهل اللغة أن الباء تكون بمعنى (عن) كما قال تعالى: ﴿سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾.. ثم ذكر بعض الأقوال الأخرى، ثم قال - رحمه الله: قلت: قول الزجاج

يخرج على وجه حسن ، وهو أن يكون الخير غير الله ، أي فاسأل عنه خبيرا ، أي عالما به ،
أي بصفاته وأسمائه .) اهـ

وقال الإمام أبو الفداء إسماعيل ابن كثير رحمه الله : (وقوله : (ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۗ
الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا) أي : استعلم عنه من هو خير به عالم به فاتبعه واقتد به) اهـ

ومن السنّة ما جرى من الاستشارة ، و إنفاذ قول أهل الخبرة ، وذلك في غزوة الخندق ،
حيث أن العرب لم تكن تعهد هذا الضرب من الحروب ، حيث يحاصر قوم قومًا في بلد ،
يطوقونه عليهم من كل جانب ، و إنما كانت العرب تتقاتل فيما بينها في مواقع بعيدة عن
الديار غالبًا يضربون لهم موعدًا أو يلتقون على غير موعد ، فيكون منهم الاقتتال طول النهار
، حتى إذا جنّ الليل انفضوا ، و عادوا من الغد لمثلها ، فكان أن استشار رسول الله ﷺ
أصحابه ، فأشار عليه سلمان رضي الله عنه قائلا : (يا رسول الله، إنّنا كنا في فارس إذا
حوصرنا، خندقنا علينا.) اهـ ، فأعمل رسول الله ﷺ رأيه ، إذ كان من قوم جربوا الحروب
ذوات العدد الكبير ، والحصار تلو الحصار .

ثم إني أحبّ أن أنقل لإخواني هذا الكلام النفيس من الإمام الذهبي رحمه الله حيث يقول :
(كم من إمام في فنّ مقصر عن غيره كسيبويه مثلاً إمام في النحو ولا يدري ما الحديث،
ووكيع إمام في الحديث ولا يعرف العربية، وكأبي نواس رأس في الشعر عَرِيٌّ من غيره،
وعبد الرحمن بن مهدي إمام في الحديث لا يدري ما الطب قط، وكمحمد بن الحسن رأس
في الفقه ولا يدري ما القراءات، وكحفص إمام في القراءة تالف في الحديث. " وللحروب
رجال يعرفون بها. "

وفي الجملة: وما أوتوا من العلم إلا قليلاً، وأما اليوم فما بقي من العلوم القليلة إلا القليل في أناس قليل، ما أقل من يعمل منهم بذلك القليل، فحسبنا الله ونعم الوكيل) اهـ (تذكرة الحفاظ 157/3)

هذا كلام الإمام الذهبي في التفريق بين العلماء و بيان اختصاص كل منهم بخصيصة تميّزه عن غيره ، و ذلك أنك حينما تقول أن سيبويه نحوي ، لا محدّث ، لست تنقص من قدره أبداً ، بل إنك بذلك تمدحه بما فيه ، و تنزل الناس منازلهم اللائقة بهم ، و ذلك هو العدل .
فلذلك لا يكون أبداً قول القائل : إنّ شيخنا محمداً فركوس أصولي ، لا يدري ما الرجال و لا الجرح والتعديل ، من قبيل الطعن و لا من قبيل الازدراء .

و عندما تقدّم قول العلامة ربيع في الرجال ، على قوله غيره ، فإننا بذلك لم نأت بضرب من الخبل ، و لا بنوع من الخطل ، إنما هو السير وفق سير من سلف ، ليصحّ لنا أن نكون من خير خلف ، و ختام ما رقمته قول إمامنا العلامة أبي عبدالرحمن محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله حيث يقول : (وجوابنا القاطع أن رأي العالم المتخصص في علمه حجة على غير المتخصص ، لا يجوز رده إلا بحجة أقوى ، فأين هي ؟) اهـ (السلسلة الصحيحة رقم 633)
وأردف هذا كذلك ، بكلمة مبرّرة ، و درّة مقرّرة ، من كلام الإمام العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله ، حيث يختم جواباً عن سؤال حول أشرطة طارق السويدان ، بنصيحة هامة في احترام التخصص ، فيقول :

(كذلك أيضاً أن نحترز غاية الاحتراز أن نسمع إلى قول من لا يكون من أهل التخصص ، فإذا جاءنا رجل فقيه ، و صار يتكلم في التاريخ ، فلا نثق به تمام الثقة ، لماذا ؟

لأنه ليس من اختصاصه , وثق في صاحب التاريخ الذي هو دونه في الفقه , لأن التاريخ من اختصاصه .) انتهى المقصود.

ويقول العلامة محمود محمد شاكر في معرض إبطال صنيع المستشرقين السيء في نشرهم كتب اللغة : (الثاني : أنه قلما يوجد فيهم المتخصص , في فقه علم بعينه حتى يكون حجة فيه
(اهـ) (جمهرة مقالاته 124/1)

فلتسيروا بسير سلفكم يا سلفيون ! و الحمد لله رب العالمين.

رقمه أبو عبدالرحمن محمد العكرمي . ليلة السبت 21 ذو الحجة 1439 هجري